

رسالة لم تنشر للجاحظ

هذه الرسالة التي يراها القارئ بعد مظهر واضح جلي من مظاهر التطور الذي أتيح للنثر العربي ، وتم تمامه على يد الجاحظ في القرن الثالث للهجرة ، إذ اقتحم على الشعر أبواه ، وشاركه في ميادينه ، وجعل ينافسها عليها منافسة قوية رائمة . وقد ظل الشعر زماناً مستأثراً بالمعاني الفنية ، منفرداً بالتعبير عنها ؛ إذ كان اللغة الغنائية الوحيدة التي يتغنى بها الرجل في آلامه وآماله ، وفي حبه وبغضائه ، وفي نشواته العصبية المختلفة ، لا تشرکہا في ذلك لغة غيرها ، حتى تم للنثر ذلك التطور .

وليس بنا الآن أن نبين كيف حدث هذا التطور ، وكيف انتهى إلى غايته ؛ فلسنا هنا إلا بصدد التقدمة لهذه الرسالة ، والاشارة إلى بعض وجوه الخطر التي تمثلها — هي ونظائرها — في تاريخ « العبارة الفنية » في اللغة العربية ، وكيف استطاع الجاحظ أن ينقل موضوعات الشعر إلى النثر ، وأن يفتح — بذلك — لهذه الموضوعات أفقا أرحب ، وعبارة أسمح ، وتجاوبا مع النفس العربية الجديدة — التي صقلتها الحضارة وأرهنها الترف ومدت من جوانبها المعرفة — أدق وأصدق . وبذلك كان الجاحظ يمثل تطور العقل العربي حين لم تعد تكفيه وتنفع رغباته الواسعة تلك المعاني المقصورة ، وتلك الصور المركزة ، وتلك العبارات المقتضبة الموجزة ، فاستطاع أن يستجيب لهذا الاتجاه ويعبر عنه ، حين أمكنه أن يقيم ذلك النحو من « العبارة الفنية » للتوسط بين الشعر والنثر : تقف بينهما ، وتسطع خصائصهما ، على النحو الذي نراه في هذه الرسالة التي كتبها في « رثاء » صديق له .

والرثاء فن شعري ، استأثر به الشعر حتى هذه الفترة . ولكن الرثاء في هذه الرسالة متأثر — بطبيعة الحال — بروح النثر ، ومن هنا كان مختلفاً عما نعهد منه في قصائد الشعراء . فهو يجيء هنا في سياق صورة مفصلة لشاب اخترم في عنفوان شبابه ، يصور فيها الجاحظ « الموت » في جميع حالاته وملابساته ، منذ أخذت بوادره تتدسس عليه إلى أن غيب في قبره . ومن ذلك كانت إثارته « الحزن » بما يرسم أمام الخيال من صورة الموت ، وهي تنطوي بطبيعتها على العناصر الأصلية للحزن . أما رثاء الشعراء فهو — في كثير من حالاته — أشبه شيءً بنذب النوادب ونواح النواصح ، وكذلك ما يشيره من الحزن ، وإنما يجيء من هذه الناحية ويصدر ذلك المصدر . وكذلك نرى الأمر مختلفاً بين الرثاء هنا والرثاء في الشعر ، في ناحية « التأبين » أو تمجيد الميت . فالجاحظ إنما يصور ما أثره وفضائله في خلال تلك الصور ، فيجئ بها متسلسلة ، انتشحت بالحسداد والتفت بالسواد ، لا مستقلة منزعة من ذلك الجو ، كما هو الشأن — كثيراً — في الشعر ، مما حمل بعض النقاد على تقرير الفرق بين المدح والرثاء ، بأن الأول ذكر المآثر حاضرة ، والرثاء ذكرها مقرونة بصيغة المضي .

رسالة لم تنشر للجاحظ

وقد أخذنا هذه الرسالة من كتاب: «المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ»، وهو مخطوط محفوظ في مكتبة برلين. وقد وردت فيه غير ممنونة، كما هو الشأن في محتويات هذا الكتاب، وقد تكون هي الرسالة التي يذكرها ياقوت في فهرست كتب الجاحظ باسم: «رسالة في موت أبي حرب الصفار البصرى». وما هي ذى، بمد أن صححنا نصها جهد الطاقة. وقدر ما تأذن الروح العلمية في النشر والتصحيح.

طه الجاهري

ورد عليّ — أسعدك الله — كتابك، تذكر فيه بُرءك من شكوك، وتستريئني في ترك الكتاب إليك، وأنت غافل عما جرت به الأقدار، وأصاب به الدهر، وقرعت به المنون، وطرقت به الحوادث. ولم أبطئ بكتابتك عنك — أكرمك الله يا أخي — إغفالا لحقك، ولا قلة منازعة من نفسى لمحاورتك؛ ولكنه شغل البال، ورَيْب الحدّان، وتقلّب الأزمان. فإني قد أصبحت كما قال الشاعر:

لم يترك الدهر لي علقاً أضنُّ به إلا اصطفاهُ بموت أو بهجران

وقد هاجنى على الكتاب إليك مُعتلجات الهموم، مُبشّاتك بعض ما في صدرى، استراحةً المكروب، ونفث المصدور؛ فقد أصبحت رصداً للمهلك، وبمدرجة العطب، وبمشرّب السُموم، وبجسنى الموت. وأحسب هُلكَ أبى فلان — رحمة الله عليه ورضوانه، وآتاه الله الرفعة والشرف الأعلى لديه — قد نَمى إليك وبلغك. وإنا لله وإنا إليه راجعون؛ تأدّباً بأمره، وتمرضاً لموَعوده. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد رأيت تعريفك كُنْه خبره، فافهم — رحمك الله — واجتهد في أن تكون السعيد الموعوظ بغيره.

وقد كنت عاينت شكوه، وفارقتَه عليه في غرة شهر رمضان. ثم تزيّد في جهد العلة وفي حدتها، وكان اليأسُ منه والخوف عليه، أقوى من الرجاء له والطمع في سلامته. ثم انحدرت العلة، وأطمع في الإفاقة، وتزيّد في الإبطاع، وتحلّل السقم وشدة المرض، واستبشر مؤملوه العافية له ببرئه. فلم يزل يزيّد في صلاح الحال، ورجوع القبوى؛ حتى إذا أكل ما اشتهى، وركب ومشى، وخرج إلى البستان، وثابت نفوسنا من الإشفاق، وزال

عنه القلق والحذارُ ، وعاوده الأمل والاعتزاز ، وقال لى فى بعض مناجاته ،
واستجابته العافية ، واستلذاذه معاودة الصّحة : « إخالنى قد نجوت ،
وأرانى قد أقبلت » مبتهجاً مسروراً ، كما قال الشاعر :

إذا بلّ من داء به خال أنه نجا ، وبه الداء الذى هو قاتلُهُ

على أنه — يرحمهُ الله — فى ذلك كَمِد اللون ، نحيف الجسم ، مضطرب
المزاج ، متغيّر عن الاعتدال ، وهو مع ذلك يخرج إلى مسجده ، ويجلس
بفنائهُ .

ثم تغيّرت به العلة ؛ فدخلتُ عليه ، فاذا نفسهُ قوية ، وطبيعته جيّدة ،
وعلته غير منكّرة ؛ فسألته ، فردّ جواب فسيح الأجل ، قوى الرجاء ، بغير
انكساف بال ، ولا وَجَلٍ من وشك ارتحال . وظلّ يومه ذلك على حاله من
الصلاح . فلما أصبح دعا بسواكه ، فاستنّ به ، فبينما هو يمرّ بالسواك على ثغره
أنكرت أمه ضعف يده ، فقالت : « مالك ؟ » ، فقال : « ما أدرى إني
لمنكرتُ نفسى . بادرونى بالنزول » ، فبودر به . فلما صار على الدرّج منحدرأ
على قدميه ، عنّ له الموت مُطلاً ، وطرقه ما كان يهرّب منه طويلاً ، وفاجأه
الذى راغ منه مجتهدأ ، وبغته ما لم يجد عنه مؤثلاً . فسقط ساقطة لم تكن
بعدها إقالة ، فشخص لها بصره ، واضطربت جوارحه ؛ واحتُمِل إلى قرار
منزله على تلك الحالة الهائلة ؛ لا يسمع الدعاء ، ولا يحفل بالبكاء ؛ ولا يردّ الجواب ،
ولا يعبأ بالأجباب . فدخلت عليه ، وهو كما قال مطيع بن إياس :

وينادونه ، وقد صمّ عنهم ثمّ قالوا — وللنساء نجيبُ — :
« ما الذى عاق أن تُحير جواباً أيها المقول الخطيب الأريب ؟ »

فبُعث إلى أهل الطبّ والمعرفة ؛ فأتوا ، فأروا حالاً فانت التلافي ،
وخرجت من العلاج ، وسبقت الاستدراك ؛ فعلموهم وانصرفوا ، ولم
يقضوا فيه قضاء !

وهو فى ذلك مشغول بجهد نفسه ، وكرّب غيره ، وتزّعه وشدّة نفسه ،
والموت يقبضه ويبسطه ، كالثوب عند الطيّ والنشر ، صريعاً مُستسلماً ،
أسيراً منجديلاً ، قد خذله الوالد والوالد ، والحميم والصديق ؛ فأكثر ما عندهم

الحسرة والتلهف ، والاستكانة والنشيج . فكث يومه ذلك ؛ ثم حمى حمى
مُدْفِيَةً ، وفاظ في آخرها ، وورد حيث وُعد ، وزهق الباطل . فمَجَّجُوا
وضَجَّجُوا ، وهنقوا وولولوا . جهدٌ لعمرِكَ قليل الرد .

ولن يرجع الموتى حنينُ الماتيم

فيا لله معتبًا ما أغض وأطرى ، وأى فتى رحل عنا ، كما قال الهذلي :
فراقٌ كقَيْصِ السَّنِّ ، فالصبر ، إنه لكلُّ أناسٍ عثرةٌ وُجُورُ
ثم دخلنا لنفسه ، وهو شلوه على سريره ، طريح على مُفْتَسَلِه ، لَقَى
لوجهه ، تقلبته الرجال بأُكْفَها ظهراً لبطن ، كما قال يزيد بن خذاق :

ورجأوني ، وما رُجِّلتُ من شَعَثٍ وألبسوني ثياباً غيرَ أخلاقِ
ورَقَعوني . وقالوا : أيما رجلٍ وأدرجوني كأني طيٌّ مخرقِ

ثم أخرج — والله — من طارفه وتليده صفراً ؛ ولو ردوه ما كان له فيه
رِغْنِي ، ولا قَبِيلَ عنه فدا . ثم أدرج في لفائفه ، وحمل على نعشه ؛ ينقله إخوانه
وخلصانه ، وأحبَّاءُه وأصفياءُه ، وأنا أحدهم يا أبا محمد ؛ فما رأيت كذلك
المنظرَ منظرًا ، لو اعتبر به الناس جميعاً لكان عندي عيٌّ ، فكيف بنا ونحن أهل
خاصته ومودته .

ولو رأيت أمه البائسة مرفوعة الحجاب ، ظاهرة للرجال ، قد عزَّها الجزع
فما أبقى ، ورماتها فما أشوى ، وجلَّ الخطب أن تتعزِّي ، حيرى ثكلى ، أم
واحد ، ومفجوعة فأقد ؛ لأنه — رحمه الله — كان من أشدَّ الناس عليها حنوًا ،
والظفهم بها برًا ؛ حتى لو عدده مملأ الكتاب ، ولما استكثر معه برٌّ طاق بن
كجيب ، ولا بر محمد بن طلحة السجَّاد بأبيه .

ولو رأيت حرمه اللأئي كان يسترهن : من جارية نفيسة ، وأمة مجبوسة ،
وحُرمة مقصورة ؛ قد هتكن أستارهن ؛ وبدت خدامهن ؛ كقوم حلَّ بهم
السَّيِّءُ ، وكتب عليهم الجلاء ؛ كما قال الربيع بن زياد :

قد كن يخبأن الوجوه تستراً فالآن حين برزن للنظار

ولو رأيت ابنته بها ذلُّ اليُتم ، وخشوع الاستكانة ، مبتذلة غير مصونة ،
مكشوفة غير محجوبة ، ظاهرة الوجه والقدمين .
ولو رأيت أباه ، وإن دموعه لمراقه ، وإن يديه لترعد ، كأن به أفكلاً من
شدّة الجزع ؛ فأما علة قلبه ونار صدره ، فلا أحسبها تطفأ غابر الأيام : ولو لم
يكن ذلك للولد ، لكان للقائه والحزم في أمره ، والصيانة والبرّ به .
ولو رأيت ابنه رأيت عبرة لا ترقأ ، ودموعاً لا تغيض ، سخيين العين ،
حرّان الصدر ، فأئض الدمعة ، مسلوب الصبر ، ما يُخارِس دموعه ، ولا
يتجلّد للشامتين .

ولو رأيت نداماه ومؤمّليه حيارى لا يدرون على أيّ خلاله يأسفون .
أعلى حُسن عشرته وكرم مجلّسه ، أم على طيب خلقه وصدق صفاته ، أم على
نجدته وشهامته ، أم على مداراته ومروءته ، أم على حلمه ومودّته وأدبه .
وما رأيت سريراً شيعه من المترّحم والباكي ، والمتفجّع والداعي ،
والمؤبّن والمُشنى ، ما صحبه ؛ حتى أسهل على بعض الحزن ما سمعت من
حسن الثنا ، وطيب الثناء ؛ فن باكٍ على شبابه ونضارة لونه ، وجمال وجهه ،
وامتلاء جسمه ، وحدّاته سنّه ؛ ومن مُلئت بالحنين ، مكروب بالأسف ،
مُشجّى بالنصه ، غصّان بسرعة الاخترام ومعالجة المنية .
وما سمعت مُراجعاً خبره بعد موته في مثل سنّه ، أجمع لكلّ مكرّمة ،
وأخذ لكلّ صالحة ، وأضّم لكلّ شاردة ، وأحفظ لكلّ ضائعة ، وأرعى
لكلّ مُهمّلة ، وأضبط لكلّ منفلّته ، من الأخلاق البوارع الفواضل ، والأفعال
النفائس الجسيمة ، منه . وكذلك كان - رحمة الله تعالى عليه - فضى .

كأن لم يقل يوماً مقلاً فتنتنى إلى قوله الأسماعُ وهي رواغمُ

ثم وُضع سريره بفناء مسجد الوِصيّ ، فصلى عليه جعفر بن القاسم ، ومن
حضره من النسالك والعبّاد والأشراف ، تحفّزهم علل غير واحدة ، أصغرها
الرحمة له . ثم انطلق بنعشه الى حفرتّه ، خوَار العود ، قليل الامتناع ؛ كما
قال مالك بن الرب :

مُخذاني فخرّاني ببردِي إليكما فقد كنتُ قبلَ اليوم صعباً قياديا

ثم نُضِدَ عَلَيْهِ اللَّيْنُ ، وَوَسِدَّتْ إِخْلَالُهُ ، وَأَهْيَلُ مِنْ جَوَانِبِهِ التَّرَابُ ، بَعِينُ الشَّفِيقِ ، وَمَحْنَةُ الْوَادِّ ، وَحَسْرَةُ الصَّدِيقِ ، وَمَحْضَرُ الْوَارِمِقِ ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ وَدَّعُوهُ وَانصَرَفُوا .

وَقَالَ قَائِلُهُمْ حَتَّى مَتَى نَقْفُ .

وَأَنَا أَقُولُ قَوْلًا أَخْرَجَ مِنَ النَّوْحِ بِهِ ، وَلَا أَخْشَى الْكُذْبَ مِنَ الْإِغْرَاقِ فِيهِ : لَيْتَ كَانَتْ الْمَنَائِيَا جَعَلْتَهُ غَرَضًا لِلانْتِضَالِ ، لَقَدْ جَعَلَ الْقِيَامَةَ غَرَضًا لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ . وَلَيْتَ أَصْبَحَ شَمْلُهُ مَبْدَدًا مَقْسَمًا ، لَقَدْ أَصْبَحَ شَمْلُ حَمْدِهِ مَجْمُوعًا . وَلَيْتَ كَانَ ابْتِكَرُهُ الْإِزْعَاجَ ، لَقَدْ ابْتَكَرَ الْهَمَمَ الرَّفِيعَةَ بِالِاتِّهَازِ وَالِابْتِدَارِ . وَلَيْتَ شَهْرُ مَوْتِهِ فِي الْمِصْرِ ، لَقَدْ شَهَرَتْ مَكَارِمُهُ فِي الْجَمْعِ . وَلَيْتَ خَبْنِي جِسْمُهُ فِي التَّرَابِ ، لَقَدْ خَبْنِي نَظِيرُهُ فِي الْأَرْضِ . وَلَيْتَ اعْتَبَطَهُ الْمَوْتُ ، لَقَدْ كَانَ وَدَّهِ لِصَدِيقِهِ غَضًا . وَلَيْتَ وَائِبَهُ الْمَوْتُ مُغَافِرًا ، لَقَدْ وَائِبَ الْمَعَالَى مُفْتَرَسًا . وَلَيْتَ انْقَطَعَ اثْرُنَا مِنْ زِيَارَتِهِ ، لَقَدْ بَقِيَ عِنْدَنَا مِنْ أَثَرِ نِعْمَتِهِ . وَلَيْتَ كَانَ عَلَى قَلْبِ الصَّدِيقِ خَفِيفًا ، لَقَدْ كَانَ عَلَى كَاهِلِ عَدُوِّهِ ثَقِيلًا . وَلَيْتَ خَرَبَتْ مَجَالِسُنَا مِنْ شَخْصِهِ ، لَقَدْ عَمَّرَتْ قُلُوبَنَا بِذِكْرِهِ . وَلَيْتَ انْقَطَعَتْ مَسَائِلُنَا لَهُ ، مَا انْقَطَعَتْ مَسَائِلُنَا فِيهِ . وَلَيْتَ بَكَيْتُ عَلَيْهِ لِأَجْدَنِّ مَبْكِي ، وَلَيْتَ احْتَسَبْتُ لِنِي مِثْلَهُ يُحْتَسَبُ .

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

وَلَيْتَ قُصِرَتْ مَدَّةُ الْإِمْتَاعِ بِهِ ، مَا قُصِرَتْ مَدَّةُ الْحَزَنِ فِيهِ . وَلَيْتَ ارْتَحَلَ عَنَّا وَرَشِيكًا ، لَقَدْ أَتَوَى فِي قُوبِنَا الْأَسْفَاطِ طَوِيلًا . وَلَيْتَ كَانَ عَرَضْنَا لِلصَّبْرِ بِمَوْتِهِ ، لَقَدْ عَرَضْنَا لِلشُّكْرِ بِحَيَاتِهِ . وَلَيْتَ كَدَنَتْ مِنَ النَّاسِ بَعْدَهُ ، وَقَرُبَتْ مِنْ جَنَابِهِمْ ، تَسْلِيًّا عَنْ بَعْضِ الْكَمَدِ ، وَتَنْفِيسًا عَنْ حَرَارَةِ الْعَلَلِ ، إِنِّي فِي ذَلِكَ لَكَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

فَإِنْ أَعْشَقَ قَوْمًا بَعْدَهُ أَوْ أَزُورُهُمْ فَكَلَوْ حَشَّ يُدِينُهُمَا مِنَ الْأَنْسِ الْمَحْجَلُ

وَلَيْتَ أَشْرَ الْبَاغِي ، وَفَرَحَ الْعَدُوِّ ، وَسُرَّ الْحَاسِدِ ، وَطَفَرَ الشَّامِتِ ، وَجَذَلَ الْمُبْغِضِ ، وَاسْتَبْشَرَ الْقَالِي ، مَا تَعَزَّيْنَا فِي ذَلِكَ إِلَّا بِقَوْلِ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيِّرُ بِالذِّهْرِ ، أَنْتَ الْمَبْرَأُ الْمَوْفُورُ ؟

رسالة لم تنشر للجاحظ

ولئن مجلدت للشامتين ، وتزيّنت للعيون ، وأصلحت من شعري
وثيابي ، وركوبني ولباسي ، فكما قال الأول :

وإني ، وإن أظهرت صبراً وحسبة وصانعت أعدائي ، عليك كمؤجع

ولئن رُمينا من الدهر بالجلى ، لقد سهلت علينا مؤونة الصغرى ؛ فنحن
في فقدنا له كما قال الأول :

وكنت أعيرُ الدمعَ قبلك من بكى فانت على من مات بعدك شاغله

ولئن قلت : إنه قصّ الجناح ، وجذّم اليد ، وقطع الظهر ، وقصم الناب ،
وجطم الصلب ، وفلّ الحد ، وأوهن المنّة ، وأضرّم الأحشاء ، وعقل
اللسان ، وأهاج المتبذل ، وأعاش الحيرة ، وأمات الذكاء ، وزرع الرغبة ، وأورث
السلوة ، وبرى اللحم ، وهاض العظم ، وأورث الكمد ، وأعقب الأسف ، وهاج
الكتابة ، لأصدّقنّ ، بل لأقصرن عن نهاية ما بلغ .

فالحمد لله ثم الحمد لله على نوائب الدهر ، ومكاره الأيام ، ومرارة العيش ،
وتجرّع الشكل ، واعتراض الشجا ؛ اصطباراً واستسلاماً ، ورجوعاً الى أمر الله ،
وتمسكاً بمراشده .

فإن تكن الأيام فرّقن بيننا فقد بان محموداً أخي يوم ودعاً

يا أبا محمد أصلحك الله فقيم التريص والانتظار ، وعلام الفرجة ؟ إنما الدنيا
كأهل دار متى نفر أو لهم تلاحقوا ، فلم يبق بها أنيس . أفما تعلم أن الركب
وقوف : من أنته دابته ارتحل ، غير أن الإياب إلى الله ! أو ما تعلم أننا رهائن
بأنفسنا ، فكيف لانسى في فكاكها ! أو ما تعلم أننا مُنتدبون لحلبة التشمير ،
فالوآني والتأخير ! فشدتكَ الله تعالى ونفسي في التشدد والتخوف .

فما نحن إلا مثلهم ، غير أننا أقما قليلا بعدهم وترحلوا